المـــارسليز

للقصصي الروسي لبونيد اندريف

ترجمة الأستاذ شكري محمد عياد

كان نكرة ؛ له روح أرنب واستسلام دابة . وعندما رماه القدر بسخريته اللئيمة بين صفوفنا السود ، ضحكنا كالمجانين حين فكرنا أن مثل هذه الأخطاء الشنيعة الفاحشة ترتكب حقاً . أما هو فقد بكى . وما رأيت قط رجلا تهمى من عينيه الدموع بهذا اليسر والوفرة . كانت تسيل من عينيه وأنفه وفمه ، كان أشبه بإسفنجة غمست فى الماء ثم اعتصرت . ولقد رأيت فى صفوفنا رجالا يبكون ، ولكن دموعهم كانت ناراً تحفل منها الوحوش الضارية . كانت تلك الدموع الجبارة تسرع بالوجوه إلى الهرم ولكنها ترد العيون شابة من جديد . كانت أشبه باللابة المنطلقة من أحشاء الأرض الملتهبة ، تترك على سطح الأرض آثار الحريق ، وتدفن تحتها مدنا بأسرها من الخدع الحقيرة والهموم التافهة . أما هذا الفتى فكان حين يبكى لايعدو أن يحمر أنفه ويبتل منديله ؛ ولعله كان يعلق مناديله صفا لتجف ؛ فقد كنت أسائل نفسى أنى له كل تلك المناديل ؟

كان طيلة عهد النفى يلجأ إلى ذوى السلطان الحقيق أو الموهوم ، ينحنى ويبكى ويحلف أنه برىء ، ويتوسل إليهم أن يرحموا شبابه ، ويعاهدهم ألا يفتح فاه طوال عمره إلا ضارعا أو شاكراً . ولكنهم كانوا يضحكون منه كما كنا نفعل ، ويسمونه « الخنزير الصغير الحقير » ، وينادونه : تعال ياخنزير ! فيهرع إليهم خاضعا ، راجيا فى كل مرة أن يسمع نبأ عودته إلى وطنه ولكنهم كانوا يهزلون . كانوا يعلمون مثلنا أنه برىء ، غير أنهم يظنون إذ يعذبونه أنهم يرهبون غيره من الخنازير الصغيرة ، كأن هذه الخنازير الصغيرة فى حاجة إلى مزيد من الخور . ولقد يأتى إلينا يدفعه فزع حيوانى من الوحدة ، ولكن وجوهنا كانت صلبة لاتلين ، وكانت مغلقة من دونه ، وعبثا كان يبحث عن المفتاح ؛ فإذا حار فى أمره دعانا رفاقه وأصدقاءه ، ولكنا نهز رؤسنا ونقول :

— حذار ! قد يسمعك أحد ! .

فلا يخجل الخنزير الصغير أن يلتفت إلى الباب !

أكنا نستطيع عند ئذ أن نمنع أنفسنا من الضحك ؟ كلا ، لقد كنا نضحك بأفواه ألفت الضحك منذ عهد بعيد . ثم يشجع ويهدأ ، ويقرب مجلسه منا ، ويحدثنا ، ويبكى كتبه العزيزة التى خلفها على المنضدة ، وأمه وإخوته الصغار ، الذين لايدرى أأحياء هم أم أهلكهم الروع والأسى .

أيبنا قرب النهاية أن نتصل به . ولما بدأ الإضراب عن الطعام أصابه الفزع ، ففزع مضحك لاسبيل إلى وصفه . وكان من الجلى أن الخنزير الصغير المسكين نهم تلقامة ، وكان شديد الخوف من رفاقه ومن السلطات أيضا . فجعل يهيم بيننا جزعا ، يمسح بمنديله جبينه الذى نضح عليه شىء لاأدرى أهو الدمع أم العرق ثم سألنى متردداً :

— هل ستضربون طويلاً عن الطعام ؟

فأجبته بغلظة :

— سنضرب طويلا .

— أو لا تأكلون أى شىء خفية ؟

فأجبته بجد وكأنى أوافقه :

— سترسل إلينا أمهاتنا الفطائر .

فنظر إلى مرتابا ، وأومأ برأسه وذهب وهو يتبهد .

وفى اليوم التالى أجاب وقد اخضر لونه من الجوع فصار كلون البيغاء :

— أيها الرفاق الأعزاء ! إننى سأصوم معكم .

— فأجبناه بصوت واحد : صُم وحدك !

ولقد صام ! لم نصدق ذلك كما أنك لن تصدقه . فظننا أنه يأكل بعض الأشياء خفية ، وكذلك ظن حراسنا . فلما أصابه تيفوس المجاعة فى أخريات الإضراب هززنا أكتافنا وقلنا :

— يالله يا عزيز الصغير المسكين !

ولكن واحداً منا — ذلك الذي لم يضحك قط — قال واجما :

— إنه رفيقنا . فلنذهب إليه .

كان يهذي وكان هذيانه المضطرب يثير الإشفاق كما كانت حياته كلها . كان يتكلم عن كتبه العزيزة ، وعن أمه وإخوته . كان يطلب حلوى ، حلوى باردة كالثلج ، حلوى لذيذة . وأقسم أنه بريء ، وسأل العفو ، ونادى فرنسا وطنه العزيز . ويا لضعف القلب الإنساني ! لقد مزق قلوبنا بصيحته : يا عزيزتي فرنسا !

كنا جميعا في الحجرة وهو راقد يموت . واسترد وعيه قبل الموت ، ورقد صامتا صغيراً ضعيفا ، ووقفنا نحن رفاقه صامتين . وسمعناه نحن جميعا يقول :

— غنوا على المارسليز حين أموت .

فصحنا وقد انتهبنا مزيج من الفرح والغضب الثائر .

— ماذا تقول ؟

فردد . غنوا على المارسليز حين أموت .

ولقد كانت عيناه جافتين للمرة الأولى ، ولكننا بكينا ، بكينا جميعاً . وكانت دموعنا ملتهبة كالنار التي تجفل منها ضاريات الوحوش .

مات . وغنينا عليه المارسليز . كنا نغني هذه الأغنية العظيمة — أغنية الحرية — بأصوات طامئة شابة ، والمحيط يرددها متوعداً ؛ وأواذي الموج تحمل إلى وطنه العزيز فرنسا فزعا شاحبا وأملا فانيا .

أصبح إلى الأبد شعارنا ذلك النكرة ، بجسمه الذي يشبه أرنبا أو دابة ، وبروحه الإنساني العظيم ! ركعوا أيها الرفاق والأصدقاء !

كنا نغني ! وكانت البنادق معوّجة إلينا ، وأفواهها ترن منذرة ، وأسنة الحراب موجهة إلى صدورنا تتهدد ، ولكن الأغنية المتوعدة ظلت تدوي عالياً عالياً ، والتابوت الأسود يتأرجح في أكف عمالقة .

كنا نغني المارسليز !

شكري محمد عياد

		الثمن	بريد
علم النفس العملي	للدكتور عزيز فريد	٢٠٠ مليم	٦٣ مليم
تاريخ الشعر السياسي	للأستاذ أحمد الشايب .	٤٠٠ »	٨٣ »
الأسلوب	الطبعة الثانية (يظهر قريباً) » » »	٢٠٠ »	٦٣ »
أصول النقد الأدبي	» » »	٣٠٠ »	٦٣ »
ظهر الإسلام	للأستاذ أحمد أمين بك	٥٠٠ »	٨٣ »
قصة الأدب في العالم	للأستاذين أحمد أمين بك وزكي نجيب محمود	٥٠٠ »	٨٣ »

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا — القاهرة .